إعلام جحر الضب العربي
نماذج مأساوية

من بديهيات أي علم أن تعرف معناه وتعريفاته، كي تصل بعد ذلك إلى نظرياته وأجزائه، فمثلا الإقتصاد: هو ذلك العلم الذي يبحث فى كيفية توزيع الموارد المحدودة على الإحتياجات المتعددة ومن ذلك التعريف دخلنا إلى تفاصيل أخرى ونظريات معرفية متشعبة، فهناك تعريف للحاجات وآخر للموارد وثالث للمرونة ورابع لتناقص الغلة... وهكذا انطلقنا من الاصطلاح التعريفي إلى الممارسة الإجرائية بتطبيق علوم الإقتصاد على الواقع من خلال الفروع المتعددة لذلك العلم، كالإقتصاد الكلي والجزئي والقياسي. لذا كان على المتلقي للرسائل الفضائية، وقبل أن يصف الإعلام بالعار والفضيحة وسواهما من سباب غير مستند إلى حقائق، اللهم إختلاف الرسائل المطروحة مع رغباتك وقناعاتك وربما أيضا أوهامك الذاتية. لذا كان تعريف الإعلام ضرورة قبل أن تنتقد أي رسالة موجهة إليك. فى كثير من الأحيان ستوجه السباب إلى قناة فضائية بعينها أو برنامجا بعينه، وتفاجأ فى الأصل، أن هذه ليست بقناة وهذا ليس برنامجا من الأساس. هى ادعائات كاذبة بوجود مثل هذه الكيانات مدرجة داخل جداول إعلام الدولة الخاص أو السلطوي. فقد أضعت جهدك ووقتك وتفكيرك فى سباب وليس نقد ما هو من الجذور وهما مسمى بقناة فضائية، ويأخذ منك هذا السباب زمنا، كان الأفضل أن توجه نحو قناة تقدم لك الإشباع العقلي والنفسي والمعرفي. لذا

فالتعريفات مهمة للغاية فى علم التلقي، لكنني فوجئت بسباق محموم حول نقل تعريفات الغرب المتفوق حضاريا دون تمحيص ونقد، بشكل من أشكال الهرولة غير المدعومة عقليا. فالذين روجوا للوحة القبلة للفنان النمساوي "جوستاف كليمت" على أنها واحدة من أعظم لوحات التصوير الزيتي في التاريخ، هم أنفسهم الذين روجوا لأوتوجروت الألماني على أنه عالم عبقري، فى علوم الإعلام وصاحب أهم نظرية تعريفية لذلك العلم، وقد جرى خلفه الباحثون العرب بسذاجة تدهشك من التناول العربي للأفكار المطروحة غربيا، طالما تم طرحها باسم جوزيف أو جورج أو هارولد، فالعقل الذي لم يقبل النقد الذاتي يوما، لا يمكننا أن نتوقع منه سوى قبول الآخر دون مناقشة موضوعية لقيمة العمل المطروح، في استرخاء تام لقبول أفكار المتفوق حضاريا حتى لو كانت محض عبث وربما تخاريف لغوية، ليس لها علاقة بالمطروح لغويا أو إجرائيا.

قبل الولوج إلى نقد تعريف أوتوجروت الألماني لمعنى الإعلام وقبل أن نعلن بجرأة بحثية بأن ما طرحه العالم الشهير، لا يرتقي إلى تعريف طالب في المرحلة الثانوية يكتب موضوعا تعبيريا، ربما يعطيه المصحح صفرا. نرجو القارئ العربي أن يضع لوحتي "القبلة لجوستاف كليمت" إلى جوار لوحة "الكورس الشعبي" للعبقرية المتفردة عبد الهادي الجزار ومنهما يعود لقراءة كتاب التراث المسروق لجورج جيمس، وإن كنا نراهن على نتاجنا العربي فلننحي جيمس جانبا ونبحث عن ابن وحشية النبطي و"ذي النون المصري" اللذين خاضا غمار تجربة فك رموز الكتابة المصرية القديمة قبل

شامبليون بمئات السنين، وعلى الرغم من ذلك يظل شامبليون هو العلامة التاريخي في فك رموز الكتابة المصرية القديمة، وعلى هذا المنوال نسير خلف نتاج الغرب دون احقاق حق أو عمل جدل حضاري، يجعلنا نثق في قدراتنا كعلماء وباحثين عرب. فما طرحه أوتوجروت بسذاجة مخيبة للآمال مع حجم شهرة صاحب التعريف جعلنا نبحث في التعريفات المختلفة للإعلام بدأ بابن منظور في لسان العرب وحتى أحدث تعريف أكاديمي على مواقع البحث العلمي، لنفاجأ "بمارثون" النقل الأكاديمي العربي عن أوتوجرت صراحة أو إشتقاقا، لكن الجدير بالذكر وعي الباحث الكبير الدكتور إبراهيم إمام الذي لم ينجرف وراء الزبد المعرفي المستورد، في مخالفة واضحة لما طرحه العالم الألماني بأن الإعلام هو: التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها في الوقت نفسه.

قبل التعرف على تعريف إبراهيم إمام، لا بد من نقد وتحليل تعريف أوتوجروت دون تحامل أو انحياز مؤدلج. لذا كان لا بد من طرح سؤال مهم عن صحة الترجمة للتعريف وهل هو صحيح أم لا؟ كي لا نتحرك في مسارات خاطئة. فبالبحث تحققنا من صحة الترجمة والتي كنت أشك في كونها عن عقلية الجماهير.. إلى آخر التعريف' وليس "لعقلية الجماهير".

فإن كان التعريف باللام صحيحا فنحن أمام كارثة علمية، أما إن كان الثاني "عن" هو "الصحيح فنحن بصدد مصيبة أكاديمية. فلنفترض جدلا صحة هذا وذاك فإن التعبير الموضوعي لعقلية

الجماهير وروحها وميولها، يعني نظريا تقديم رسائل ممنهجة تملأ فراغا معرفيا أو تثبيتيا لمعارف مسبقة، وهذا التعريف هو دعوة رسمية لتعطيل جميع الميكانيزمات الحسية للإنسان وإحالته إلى متلق سلبي، فاقد لمنهجية البحث العلمي وإعمال العقل، لأنه بهذا الوصف سيتلقى رسائل معبرة عن عقله وروحه ومشاعره، دون البحث والتقصي عن صحة الرسالة فالتلقي أصبح علما مستقلا، قد أفردنا له بحثا كاملا بعنوان "الفضائيات العربية الطريق إلى الجهل" وليس مجرد مشاهدة سلبية توافقية مع أفكار مسبقة أو وجدان يرغب في التلقي بما يوافق الوهم والحالة التي عليها المستقبل. أما إذا افترضنا أن التعريف جاء بـ"عن" فهذا يعني بناء الرسائل بما يوافق عقلية وميول واتجاهات المتلقي، وليس لهذا التعريف إلا توصيفا واحدا وهو: صياغة الرسالة بحالة توافقية، سواء كانت كاذبة أو صادقة. لذا كان تعريف إبراهيم إمام أكثر عمقا من تعريف أوتوجروت الذي لا يعد تعريفا من الأساس. فقد عرف إبراهيم إمام الإعلام: هو تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة أو الحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحتها، أو دقّتها، بالنسبة للمصدر الذي تنبع منه، أو تُنسب إليه.

قضايا الفكر العربي عامة والإعلام خاصة لا تخرج عن دائرة حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلتموه، ربما خوفا من النقد أو استحياء من الإعلان عن نظرية عربية جديده تنافس أو تتفوق على غيرها. لذا أقدم تعريفي الخاص بالإعلام بلا خوف من النقد، فنحن لا نكتب كتبا أو أبحاثا مقدسة، بل محض أفكار إنسانية قابلة للصواب

والخطأ، فالإعلام عندي: هو أداة تحريضية على الثقافة والمعرفة الصحيحة. أي هو دافع لعدم استقبال الرسائل دون بحث وتحقيق وتقصي لمضمون الرسالة التي تعرض إليها المتلقي. فالحيادية في الإعلام تشبه تماما مدينة أفلاطون المثالية والموضوعية المفترضة ما هي إلا أحلام باحث عن فردوس مفقود، والعمل الأكاديمي العربي الذي وقع في خطئية الهرولة خلف المفاهيم المغلوطة دخل جحر ضب التفوق الحضاري دون أن يثق في قدراته التي إذا ما استطعنا الترويج لها لكانت "الكورس الشعبي" أهم عند العالم من قبلة كليمت. فيقينيا ليس للغربي عقلان وللعربي عقل واحد. لكن الشهادة الحق، أنهم أكثر منا دراية وخبرة فى فنون التغليف والتصدير والتربح ونعترف أيضا أنهم أصحاب السبق فى فنون السينما والتليفزيون وغيرهما من فنون الصورة المتحركة، ومن منطلق هذا التفوق التقني تعامل الغرب معنا دون أن يضع فى حساباته، أن سيد الطب فى هذا العالم هو السير مجدي يعقوب المصري المحال بالتاريخ الحديث إلى العربية مجازا، وأن رائد زراعة الكلي فى الشرق والعالم هوالمصري محمد غنيم أيضا، وبأن الفيمتوثانية من نتاج عقل مصري معرب أو عربي كما يحلو لك أن تصفه طبقا لمفهومك للهوية، وبأن الله خلق مصطفى مشرفة كي يرفعه آنيشتين على رأسه ويضعه فى مرآة عينيه ليراه عالما معجزة بكل المقاييس، وبأن هناك الكثير والكثير من تلك النماذج التى ذكرناها آنفا.

بالطبع لا ننكر تلك المقولة التى نرددها على ألسنتنا ليل نهار: "إن هؤلاء العباقرة لو لم يغادروا ناحية الشمال، لما كانوا هكذا". لكن التساؤل المهم: هل نركن إلى تلك المقولة وننتظر عطف الآخر ومنحته كي نقدم منتجنا المصري أو العربي ونفخر به أمام العالم؟ الإجابة لا تهم، ليس لكونها غير مهمة، لكن محاولة الإجابة ستأخذنا فى طرقات التنظير التى استهلكنا وقودها أزمنة عديدة. فالغرب الذي يتعامل معنا بناء على تصوره المجهز مسبقا فى أروقة السياسة، بأننا بشر ثالث أو عالم ثالث كما يحلو لهم التسمية. لا يتوقعوا منا إلا قبول منتجهم الحضاري بقدسية دعائية يجيدون الترويج لها. لكننا لن ننتظر اجابات المنظرين ولن ننتظر أيضا منحتهم ناحية الشمال كي نقدم منتجنا الذي نراه صوبا، حتى ولو رآه غيرنا خطأ كاملا فالعبرة ليست فى المنتج وحد، بل فى جرأة الطرح ولو كان المطروح كله عوار، فيكفيك شرف التجربة والسبق والجرأة وفتح الباب أمام الباحثين الجدد. فقد دفعتنا حرب احتلال العراق وبالتحديد لحظة سقوط تمثال صدام حسين، إلى ولوج وطرح قضية جديدة بشكل ذاتي، قضية خاصة بعلم التلقي فيما بعد، حيث أنني لم أكن قد اجتزت عتبات كشف لعبة المخادعة الإعلامية بعد، فقد تم تصوير المشهد المعد والمجهز بعناية قبل تحطيم التمثال بأيام، بطريقة تثير الشفقة على أداء ملوك "الميديا" العالمية، فقد تخيل السواد الأعظم من الناس والكثير من المحترفين، بأن لحظة سقوط التمثال، كانت شعبية بحته ومصورة بتلقائية تواجد الاعلام فى موقع الحدث آنيا. لكن الدارس الحقيقي لحركات الكاميرا وفن

التوليف "المونتاج" والعارف بالمصطلحات وتعريفاتها وضروراتها، يمكنه رصد تلك المخادعة الغبية، حيث تعددت اللقطات بين عامة ومتوسطة وبانورامية دائرية وشمال ويمين وما نسميه أيضا "تلت أب وتلت دون" وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال سوى وجود عربة مجهزة للبث المباشر، وقد حاولوا قدر استطاعتهم بأن تظهر بعض اللقطات ارتجالية ومهتزة، فما حاولت الكاميرا تعميته، كشفه مونتاج الهواء بسلاسة. فالكذب لا يدوم ولو أتوا بشياطين الكذب من العالم الآخر ولا سيما أن اكتشف تلك المخادعة مبتدئ مثلي فى ذلك التاريخ. دفعتنا تلك الواقعة التاريخية إلى رصد نقل الأحداث الساخنة حول العالم، وكنا قبلها وبعدها بقليل فى حالة انبهار من أداء قناة الجزيرة واحترافيتها فى نقل الحدث أول بأول وكأنهم على علم مسبق بلحظة وقوع الكارثة. لكن كلمة وكأنهم اتضح أنها وكانوا على علم مسبق وليس كأنهم... وقد تكشفت اللعبة إبان ما أسميناها بثورات الربيع العربي، وعلاقة تلك المحطة بالخاجية القطرية وزواج المسيار ما بين قطر وأمريكا. فكانت أحداث 11 سبتمبر وتصوير انهيار برج التجارة العالمية بشكل احترافي كامل، ليس فيه أدنى شك، من علم بعض وسائل الإعلام بالحدث مسبقا، حيث أتت اللقطات بارتكاز الكاميرا على الحامل "الترايبد" فى الكثير من اللقطات، أما اللقطات المهتزة بقصد الايحاء بأن التصوير لهواة، فقد فضحها مفتاح "الزوم إن وأوت" ومحور ضبط مؤشر الفوكس فى الكاميرا، واصطياد الكاميرا لمروحية مرتفعة بعدسة عالية التقنية ربما تكون من نوع "4.5" وغير ذلك من المفردات

التى تثبت يقينيا علاقة الحدث بأصحابه وليس علاقة الحدث بالإرهاب العربي كما زعموا، حتى وإن أثبتت التحقيقات تورط بعض المغيبين العرب فى تلك الأحداث الدموية والمرفوضة إنسانيا، لكن الأزمة الحقيقية أن خبراء الإعلام العرب لم يحاولوا تبرئة ساحتنا بعشرات من المفردات الفنية والعلمية التي مرت على من يسمون أنفسهم بالخبراء دون أن يلجوا غمار كشف لعبة المخادعة الإعلامية الغربية بآلتها الدعائية، وعلى هذه الشاكلة سار إعلام قناة الجزيرة حتى تكشفت لعبة المخادعة فى ميدان تحرير مصر، فقد عمدت تلك الآلة إلى تصوير مظاهرات 25 يناير باستخدام اللقطات العامة "total" وما نسميه أيضا "اكستريم لونج شوت" لكشف مئات الآلاف من البشر داخل الميدان بطريقة توحي للمتلقي بأنهم ملايين من الثوار، وفى المقابل كانت آلة التليفزيون الحكومي "ماسبيرو" تعمل بغباء غير مسبوق فى تثبيت الكاميرا على مجموعة قليلة العدد بلقطة تقترب من الميديم شوت. لقطة باهتة، لا هي بالتوتال أو المتوسط، مع ثبات كامل للكادر "فيكس كادر" فيما كانت الجزيرة تستخدم جميع تقنيات هوليود لتوصيل رسالتها المتفق عليها مسبقا. وعلى النقيض تماما بعدما تولى محمد مرسي المدعوم قطريا حكم مصر، وبدأت الجزيرة فى تغطية التظاهرات ضد من أسماه المتظاهرون بصبي المرشد. استخدمت قناة الجزيرة نفس تقنيات غباء ماسبيرو الغارق فى اعلام ما قبل بدأ الاعلام. فاتخذت أسلوب "الفيكس كادر" فى لقطة متوسطة أو عامة بعيدة كل البعد عن الواسعة جدا "اكستريم" على عدد محدود من المتظاهرين. لذا

واجهنا هذه المخادعة الهوليودية بعدة شروط مقتعة لتصديق رسائل تصوير ونقل التظاهرات ومنها:

1/ الإعتماد على اللقطات الواسعة جدا "اكستريم".

2/ عدم اعتماد اللقطات المتوسطة والاعتداد بها لحظة نقل التظاهرة.

3/ عدم الوثوق ورفض الانتقال بين اللقطات باستخدام أسلوب القطع أو المزج أو الفيد...، أي أن يكون الانتقال متصل باستخدام المحورين الأفقي والرأسي للكاميرا حتى وإن قال الخبراء أن هذه ليست طريقة انتقال بين المشاهد.

4/ الوثوق فى كافة اللقطات البانورامية المتصلة.

5/ عدم الوثوق فى أسلوب الفوتومونتاج لحظة استطلاع أراء المتظاهرين.

ربما يرى البعض أن ما طرحناه يحتاج إلى مجهود كبير كي يفهمه المشاهد العادي، لكن الأمر أبسط مما يتصوره الكثيرون. نحن فقط فى حاجة إلى معاهد تدريبية متخصصة فى تلقي الرسائل التليفزيونية، وعمل دورات مكثفة للمهتمين بالمعرفة الحقيقية دون تلبيس وولوج الخبراء فى غمار هذه القضية، كي لا ننتظر منحة الغرب وموسم الهجرة إلى الشمال. فالتعريفات مهمة ولا يمكننا التطبيق على الواقع دون التعرف على التنظير، فبداهة النظرية أسبق من التطبيق، ولو أردت أن تكتشف لعبة المخادعة الإعلامية، فيجب أن تحصل على جانب من علم التلقي، الذي يفرض ضرورة الخبرة بالتعريف والإصطلاح، ثم مطابقة النظرية

بالواقع. فلو أنك لا تملك أدنى ثقافة إعلامية عن تعريف الإعلام وإصطلاحات حركة الكاميرا والتنقل بين المشاهد والضوء والظل.. وغيرهم من المفردات التي أفردت لها من قبل مساحة بحثية مستقلة. فلن تستطيع كشف معيب الرسائل من سليمها.

قد يتخيل البعض أن ما أطرحه تشمله الصعوبة ومحمول على التخصصية. لكن الأمر عكس ذلك تماما. فقد أشرت مسبقا إلى فكرة الدورات التدريبية المبسطة وأيضا إدراج علم تلقي الرسائل الإعلامية على جداول التنمية البشرية. وإن لم يكن لديك الوقت الكافى للتعرف على تلك المعارف، فيمكنك القراءة بشكل مبسط حول التعريفات المختلفة للإعلام وتنتقي منها ما تراه مناسبا وحقق شبه إجماع عند الباحثين بأن ذلك التعريف هو الأقرب للصواب. تاركا هذا اللهاث خلف كل ما هو مستورد. فمصر بها من الباحثين فى مجال الإعلام ما نقف لهم إحتراما وتقديرا. ومن التعريف العام يمكنك التعرف على مفردات العمل التليفزيوني من الصورة بمشتملاتها والصوت بعناصرة وبعضا من العمليات المنظمة للإدراك كقراءة ميسرة فى علم النفس. هذا للشخص الذي يريد أن يحصل المعارف الخاصة بالإعلام المرئي دون أن يفرض عليه أحد نموذجا مقترحا يعمل من خلاله على كشف معيب الرسائل من سليمها. أما الطريقة الأخرى والتى لا أفضلها هو توجيه القارئ إلى بحث بعينه على أنه النموذج المثالي، رغم أنني دعوت فى البداية إلى قراءة "الفضائيات العربية الطريق إلى الجهل" فقد تكون دعوتي محض ترويج لما كتبته من قبل ونال إعجاب الكثيرين من المفكرين

والباحثين. لكنها دراسة متخصصة إلى حد ما. لذا نعاود السير فى إتجاه مبسط علنا نفيد فى هذا الأمر. فإن اقتنعت بأن الإعلام كما جاء فى تعريف الدكتور إبراهيم إمام: هو تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الصحيحة أو الحقائق الواضحة التي يمكن التثبت من صحتها، أو دقّتها، بالنسبة للمصدر الذي تنبع منه، أو تُنسب إليه.

فعليك فى هذه الحالة تقييم القناة التي تتابعها وتقدم لك الرسالة، وهل هي حقا تقدم حقائق أم محض أكاذيب وأخبار لا صحة لها؟ فإن تأكدت من صدقها بالبحث والتحري عما قدمته دون إستقبال الرسالة كمسلمة واجتهدت قليلا طلبا للمعرفة والتحقق من صحتها، فأنت تتابع قناة إعلامية، أما إن كان العكس هو الصحيح، فأنت بصدد هلوسات مرئية مسموعة مدرجة خطأ فى جداول الوسائل الإعلامية. وما عليك إلا تجاهلها تماما. لكن التساؤل المهم: كيف لك أن تتحقق من صدق الرسالة أو كذبها؟

يتم ذلك على مستويين :

الأول: ويمكن لأي شخص غير مزود بثقافة إعلامية أن يدركه وذلك عن طريق متابعة الرسالة الواحدة من أكثر من مصدر، والمقارنة بين قوة ومصداقية تلك المصادر، كما يمكن أيضا من باب زيادة المعرفة، محاولة التحقق بشكل شخصي، عن طريق النزول إلى موقع الحدث، أو الاتصال بشخص قريب من الموقع وموثوق فيه من ناحيتك وجمع المعلومات التي ترغب فى التحقق منها، إن كان المطروح واقعة ما، أما إن كانت الرسالة تطرح قضايا فكرية

وأنت لا تملك خبرة فى هذا المجال، فعلى الفور، إما أن تحاول تجميع بعض المصادر التي تحدثت عن القضية ومشهود بعلميتها وكفاءتها طبقا لمنهج البحث العلمي، أو محاولة الاتصال بعدة خبراء فى ذلك المجال كي تتحقق برأى أكثر من خبير، وتقارن بين ما طرحه كل منهم.

المستوى الثاني: فى الحقيقة هذا الأمر يحتاج قدرا من الثقافة الخاصة بمفردات عالم البرامج لأن المخادعة فى هذه الحالة لا تتم بشكل مباشر، بل بطريقة علمية وفنية لا يدركها إلا المتخصصون أو من يمتلكون قدرا معرفيا من الثقافة الإعلامية المرئية. لأن العاملين على تلك البرامج يستخدمون مفردات متعددة فى محاولة للتأثير على حواس المتلقي، بما يشبه ألاعيب السحرة، وذلك باستخدام مفردات متعددة كالضوء والظل وسيكولوجيا الألوان وطريقة التوليف... وغيرهم من مفردات العمل البرامجي الفني والتقني. لذا يجب أن نهتم بأمر الثقافة الإعلامية وبالأخص بعدما إنتشرت الرسائل المرئية على مواقع التواصل الإجتماعي والشبكة العنكبوتية بشكل عام. أعتقد أنه بعد ذلك الطرح المبسط لضرورة وجود ثقافة إعلامية، يجب علينا أن نتهم معارفنا القاصرة عن فهم طبيعة عالم الإعلام المرئي. فاللوم يقع على جهلنا بتلك المعارف التى أصبحت ضرورة. وعليه لابد من التفرقة ما بين إعلام العار وعورة العقل الذي استسهل وخضع للكسل فى طريقة التلقي.